2

الحب والهجر..
وغدر الملك

obeikandl.com

تحكي أم كلثوم في مقالها النادر بمجلة الهلال أكتوبر عام ١٩٧١م في الذكرى الأولى لرحيل جمال عبد الناصر قصة لقائها الثاني به وقصة علمها بوقوع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م...تقول:

كان المؤذن قد انتهي لتوه من آذان الفجر، حين اتصل بي ابن أختي، وكان يؤمئذ ضابطا بسلاح الإشارة، وقال لي أبشري.. لقد حقق الله سبحانه وتعالي الأمل الكبير الذي طالما كنت تحلمين به.. لقد قامت الثورة.. اسمعي الإذاعة.

كنت يومئذ اصطاف بالإسكندرية، وهرعت إلى الراديو، وسمعت «أنور السادات» بصوته القوي المؤمن، يبشر الناس بقيام الثورة، ويتلو البيان الأول الذي خرجت مصر على صيحته تتنسم أنفاس الحرية.. كان شيئًا كالأحلام، بل أجمل من الأحلام، نهضت على الفور، وأعددت عدتي للسفر إلى القاهرة، اتجهت إلى مطار الإسكندرية، وهناك وجدت بعض أعضاء الوزارة القائمة «يومئذ»، وزارة «نجيب الهلالي».. يتأهبون لركوب الطائرة لتذهب بهم إلى القاهرة.. وسألني أحد الوزراء: لماذا أنت ذاهبة إلى القاهرة؟!، قلت له بمنتهي الصرامة: قل لي أنت: لماذا أنتم ذاهبون إلى القاهرة؟ قلت له هذا؛ لأنني كنت واثقة أنهم ذاهبون يحاولون الوقوف في وجه القدر. ولكن يد الله كانت فوق أيديهم، وبقيت الثورة، واستقرت في أعماق التاريخ، أما هم، فقد ذهبوا مع الريح، ونزلت من الطائرة، فذهبت إلى إدارة الجيش بكوبري القبة رأسًا، لأهنئ الأبطال الثائرين على الظلم والبغي والطاغوت، الذين وثبوا ليضعوا نهاية تاريخية لعهد الظلام، وكنت أتصور، وأنا أتسرب إلى مبني إدارة الجيش أنني لن أعرف منهم أحدا.. ولكنني عندما قلبتُ عيني في وجوه هؤلاء الأبطال، لم ألبث أن تبين أنني أعرف من بينهم تلك الوجوه الحبيبة المؤمنة.. وجوه أبطال الفالوجا الذين احتفيت بهم في بيتي منذ أربع سنوات، وفي طليعتم وجه «جمال عبد الناصر»، وتصافحنا للمرة الثانية، وقد ازداد في عينيه هذه المرة بريق

الإصرار على النصر، وعدت إلى بيتي في القاهرة، واتصل بي الأستاذ الشاعر أحمد رامي، وسألته أن يعجل بنظم تحية أقدمها للثورة لنظم لي الأغنية التي مطلعها:

«مصر التي في خاطري وفي فمي

أحبها من كل روحي ودمي

بني الحمي والوطن

من منكمو يحبها مثلي أنا»

ذكرت أم كلثوم هذه الحقائق بعد قيام الثورة، وأعادت ذكرها بعد عام من رحيل عبد الناصر، غير أنها لم تذكر جوانب القلق التي أعترتها منذ أن سمعت خبر الثورة في الراديو وهي في الإسكندرية..كان قلقها ممزوجًا بالخوف على ما حدث.. الخوف من أن يظهر كما قالت: «من يحاولون الوقوف في وجه القدر».. وتكشف قصة لسعد الدين وهبة كان هو طرفها شخصيًا هذا القلق الممزوج بالخوف.

يقول سعد: «كنت أعمل ضابطًا بمرور الإسكندرية في يوليو ١٩٥٢م، وفي الوقت نفسه كنت أدرس في كلية الآداب، وسمعت البيان الأول للثورة بصوت أنور السادات من راديو سيارة في مدخل الطريق الزراعي بين القاهرة والإسكندرية عند نقطة «حجر النوبتجية»، وكنت قد تلقيت في منتصف الليل إشارة بأن حالة الطوارئ ستعلن في الإسكندرية السادسة صباحًا، وعلي كضابط مرور أن أوفر عددًا من سيارات اللوري تحمل عساكر بلوكات النظام ـ الأمن المركزي حاليا ـ استجابة لحالة الطوارئ وكان من الصعب أن نجد سيارة لوري في منتصف الليل؟ ذهبت بالموتوسيكل إلى هاتف المحافظة وسألت عامل الهاتف أن يفهم أكثر من ذلك، هداني تفكيري أن أذهب إلى مدخل طريق القاهرة لأسأل القادمين من القاهرة عما يجري هناك، وسمعت البيان الأول لثورة يوليو، أو الحركة المباركة، كما كنا نسميها في أشهرها الأولي».

obeikandl.com

يواصل سعد الدين وهبة سرد حكايته: «بدلتي الرسمية، والموتوسيكل الحكومي الذي أركبه ساعداني على التردد على مواطن الأخبار، فذهبت إلى (بوليكلي)، وإلى رأس التين ـ المقر الصيفي لمجلس الوزراء في الإسكندرية وقصر الملك ـ وإلى المنتزه ـ قصر الملك أيضا ـ وفي يوم ٢٦ (يوليو) ذهبت في ركب سليمان حافظ (وكيل مجلس الدولة) من بوليلكي إلى قصر التين، وكان يحمل في يده وثيقة تنازل فاروق عن عرش مصر.. بقيت طبعًا في حديقة القصر، ثم عدت أتقدم سيارة سليمان حافظ، بعدما وقع فاروق على التنازل.. كان ذلك قبل الظهر، وكان محددًا لمغادرته الإسكندرية السادسة مساء، ولم يكن هناك بين جماهير مصر من يعلم ذلك إلا المسئولون طبعًا.. ومن فرحتي أردت أن أذيع النبأ، فذهبت إلى كلية الآداب جامعة الإسكندرية حيث كانت لجان تصحيح أوراق الإمتحان مجتمعة، وكنت منقولًا من السنة الأولي إلى السنة الثانية والنتيجة لم تظهر بعد، وأبلغت من وجدته من الأساتذة: د.إبراهيم شريف.. ود. ثابت الفندي وغيرهما، ثم غادرت كلية الآداب إلى نادي ضباط الجيش بالسلسلة، والقريب من كلية الآداب بالشاطبي (إدارة جامعة الإسكندرية الآن) وهناك وجدت بعض ضباط القلم السياسي أمام النادي، ومن بينهم اليوزباشي سيد فهمي (وزير الداخلية في السبعينات وحتي مظاهرات يناير ١٩٧٧م) فوقفت معه نتناول بالحديث الأحداث الجارية، وفجأة وجدنا سيارة سوداء تقف بالقرب منا، وصوت سيدة تنادي منها:

يا حضرة الضابط.. يا حضرة الضابط..

وأشار لي سيد فهمي:

روح شوف الست دي عاوزه إيه.

ذهبت إليها.. وعندما اقتربت من السيارة، بادرتني بالسؤال:

هو خرج ولا لسه؟

سألتها: من؟

أجابت: الملك.

قلت: لسه، إنما هيخرج الساعة ستة..

فرفعت يدها إلى السماء، وقالت بصوت مرتفع:

ربنا يحميهم ويوفقهم.

يضيف سعد الدين وهبه: «لم يكن الصوت غريبًا، وعندما صاح بهذا الارتفاع، وتأملت محدثتي، عرفتها، كانت أم كلثوم التي شكرتني وانصرفت».

على الرغم من قلق أم كلثوم على الحركة الوليدة كما سميت آنذاك. وهو القلق الذي صب في خانة فرحتها وتأييدها لها، الأمر الذي جعلها تأتي من الإسكندرية رأسًا إلى مقر الضباط للتهنئة.. على الرغم من هذا إلا أن شيئًا ما حدث كاد أن يعصف بفرحتها بالحدث الكبير، وكان من الإذاعة..

اعتمدت الإذاعة المصرية في الأسبوعين الأولين من عمر الثورة على تقديم رصيدها من الأغنيات الوطنية القديمة التي سجلها كبار المطربين والمطربات ومن تلك الأغنيات «مصر تتحدث عن نفسها»، والتي تغنت بها أم كلثوم لأول مرة عام ١٩٥١م وقصيدة «فلسطين»، و«نشيد الجهاد» وأغنية «أحب عيشة الحرية»، وتغني بها محمد عبد الوهاب قبل عام ١٩٥٢م، وأما الأغنية الوطنية التي سجلت بعد نجاح الثورة مباشرةً فهي قصيدة «صحوة مصر» نظم الشاعر على الجارم، وتلحين محمد القصبجي وغناء المطربة شهر زاد، وكانت في بدايتها الغنائية وقدمت شهر زاد أيضا أغنية «الله أكبر» كلمات محمد على أحمد ولحن حسين جنيد وقدمتها في ١٤ أغسطس. وقدم محمد قنديل أغنية «الراية المصرية» تأليف محمد إسماعيل جاد في ٢٦ أغسطس وكان مطلعها:

هلا لك في الوجود زينة

يا أغلي من ضي عينيا

يا راية مصر يا غالية

تعيش وتسلمي لينا

وقدم قنديل في شهر سبتمبر أغنيته الشهيرة «ع الدوار»

أما أم كلثوم، فقدمت وكما ذكرنا على لسانها من قبل أغنية «مصر التي في خاطري».

وعلي الرغم من هذا الزخم الغنائي الذي تسابق إليه الجميع إلا أنه وبعد أن قررت الثورة تعيين رقيبًا للإذاعة اختفي صوت أم كلثوم من الإذاعة، وكأن بلدوزر داس على تسجيلاتها الغنائية، واختفي صوتها بقرار تصور من اتخذه أنه يملك إحالة فنان بقامة أم كلثوم إلى المعاش، أو حبس صوته الغنائي في صندوق مغلق لا يمكن فتحه!

يقول المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقة أم كلثوم: «كنت أعمل في ذلك الوقت مهندسًا في الإذاعة، ولاحظت بعد قيام الثورة أن الإذاعة لم تعد تذيع أغاني أم كلثوم، وكان السبب في ذلك وجيه أباظة (أحد الضباط الأحرار) وأوكلت إليه الثورة في البداية مهمة تسمي «أركان حرب الإذاعة» وشعرت أم كلثوم بأن هناك «حاجة»، وكان أخي الأكبر دسوقي ضابطًا في الجيش، ودفعة المشير عبد الحكيم عامر، فذهب لمقابلته، وقدمه عبد الحكيم عامر لجمال عبد الناصر، وأخبره أخي بأن الإذاعة منعت أغاني أم كلثوم».

ولما علم عبد الناصر أن حجة منع أغانيها هي أنها حسب رأي أركان حرب الإذاعة من العهد البائد، كان تعليقه الشهير: «إذا كنا نستطيع هدم الأهرام، وأبو الهول لأنهما من العهد البائد، يبقي نهدم أم كلثوم».. وعلى الفور تم تصحيح الوضع وعادت أغاني أم كلثوم».

لم يقف تصرف عبد الناصر عند حد تصحيح الوضع واعتبار أم كلثوم صرحًا لا يمكن هدمه كالأهرامات وأبو الهول

يقول محمد الدسوقي: «بعد أيام فوجئت بأم كلثوم تقل لي: عبد الناصر سوف يتعشي عندنا ما تروحش!

قلت لها: أهلًا وسهلًا

وحضر فعلًا جمال عبد الناصر، وتعشي مع أم كلثوم، وكنت معها، وعرفنا منه أنه معجب للغاية بصوت أم كلثوم، ولا يعمل إلا على صوتها.. وبعد العشاء حضر صلاح سالم، ثم حضر جمال سالم، وبمجرد أن دخل ووجدنا في الصالون.. قال: أنتم قاعدين كده من غير حراسة.. فردت أم كلثوم: الحارس ربنا».

كان قرار أركان حرب الإذاعة بمنع أغاني أم كلثوم من الإذاعة هو جزء من المشهد، الذي بدأت ملامحه في التكوين عبر تفاصيل سابقة أخري تؤكد في مجملها أن عسكرة الفن كعسكرة المشاعر كلاهما يؤدي إلى الجمود، وأنه حين تضع المسئولية في أيد من لا يفهمها على الدنيا السلام ، ويروي الإعلامي الشهير أحمد سعيد رئيس إذاعة صوت العرب من ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٧ ، والمذيع الأشهر في عهد جمال عبد الناصر، جانبًا من هذه التفاصيل التي لا تخلو من الطرافة.

يقول أحمد سعيد:

«في ٣١ مارس ١٩٥٣م توجه إلى مبني الإذاعة ضابط المخابرات فتحي الديب المسؤول عن دائرة الشئون العربية في جهاز المخابرات المصرية لمقابلتي وإبلاغي بقرار إنشاء برنامج صوت العرب وترشيحي للعمل فيه».

صعد الديب إلى مبني الإذاعة حيث يوجد أحمد سعيد، وتصادف أن ثلاثة من كبار المذيعين في تاريخ الإذاعة المصرية كانوا موجودين، وهم جلال معوض، ونادية توفيق وهمت مصطفي، كان الثلاثة يتبادلون القفشات حول آخر ما فعله

obeikandl.com

الرقيب، وإستمع الديب إلى ما يذكرونه بشغف بالغ سجله أحمد سعيد في أوراقه الخاصة التي قدر لي الاطلاع عليها بشكل خاص، ومنها أنقل حرفيًا :

تردد الجدران الزجاجية للحجرة ضحكات متداخلة يقطعها فتحي الديب وهو يرمق الزميلتين همت مصطفي، ونادية توفيق .

-الديب : الأختين زميلكم .

-جلال معوض : همت مصطفي المذيعة ونادية توفيق البرامج الثقافية ، أصلنا كنا بنراجع اسكريبت السهرة بتاعة أعمال الثورة اللي ح تتذاع الليلة دي .

-يرمق فتحي الديب الإذاعيين الأربعة بنظرة امتزج فيها التعجب بدهاء التلبس :

يبقي لازم السهرة فيها حاجة تضحك ، طب ما تضحكوني معاكم.

ويمضي الحوار بين الديب والمذيعين الأربعة كطلقات حوارية سريعة تصل إلى هدفها الحقيقي، ولكن بعد مراوغات ، أما الهدف، فكان تصرفات الرقيب الذي عينته الثورة على الإذاعة ، وكانت ذروة تصرفاته مع أغنية لأم كلثوم طلب الديب أن يعرف قصتها بالضبط .

-أحمد: شوف يا حضرة اليوزباشي ، بعد اللي عمله إمبارح الصاغ الرقيب ، أنا ما ظنش عندكم عقاب لنا في الإذاعة أبشع من إنكم بتخلونا نتعامل معاه يوميًا.

ينفجر فتحي الديب ضاحكًا متسائلاً :ليه هو عمل إيه ؟

-يرد أحمد : قولي له يا نادية .

- نادية : لا ولا حاجة ، بس منع إذاعة غنوة لأم كلثوم .

- فتحي : ماهي أم كلثوم كان لها غنوة بتحيي الملك .

- همت : لا ده منع أغنية ولدي الهدي ، فالكائنات ضياء .

- فتحي : ولدي الهدي ! طب ليه ؟

-همت : مش الثورة لغت الملكية والألقاب .

- فتحي : ده صحيح .

- همت : هوه كمان شاف من حقه أن يلغي قصيدة غنائية .

-تتجه همت مصطفي بحديثها إلى نادية توفيق :مش تحكي يانادية ، ولا أنت محرجة عشان انت مسيحية والحكاية عن مدح أحمد شوقي للرسول عليه الصلاة والسلام .

- يهتف فتحي الديب في استفسار قلق : احكي لي يا أستاذة نادية .

-نادية توفيق: إمبارح كانت على برنامج السهرة قصيدة «ولد الهدي» لأم كلثوم.. وتنفيذًا لتعليمات السيد الصاغ الرقيب كان المفروض نبعت له نص أبياتها بالكامل عشان يراجعه ويعتمده أو يعتمد أي أغنية أخري.

-فتحي الديب: وبعدين ؟

-نادية توفيق: زميلنا الأستاذ أحمد خميس، وهو شاعر أصلاً وجد أن أبيات القصيدة معروفة، وأنها في مدح النبي وتحية مولده، أتاري الصاغ الرقيب بيراجع البرنامج اليومي، واكتشف أنه لم يعرض عليه أبيات القصيدة، وسأل عن المسؤل أمس فقالوا له: أحمد خميس فكلمه وعنفه، وطلب فورًا نص القصيدة، وقرأها مرتين وعلم بقلم في إيده بدايرة، وكتب جنبها كلمتين، ووقع عليها، ثم قال: «يتوقف إذاعتها، وحطوا بدلاً منها حاجة من اللي أنا سبق واعتمدتها؛ عشان نازل لمجلس الثورة».

-فتحي : وإيه اللي حوطه بدايرة من كلامها ، وكتب ايه جنبها ؟.

- نادية : خرجت من مكتبه من غير ما أبص في الورقة ، لقيت باب الأسانسير بيفتح دخلت فيه ورفعت الورقة عشان أشوف اللي عمله ، وأشكر الرب أني ما رفعتها وشفت الدايرة حوالين إيه والكلام اللي جنبها وأنا جوه في مكتبه .

- فتحي : ليه .

- نادية : لا ولا حاجة

-جلال : قولي يا نادية ولا يهمك ، ما انت لازم تترفدي معانا عشان نبقي عاملين حتى في الرفت وحدة وطنية

ويثبت احمد سعيد في مذكراته ان وجه فتحي الديب اكتسي لحظة بضيق غير أنه سرعان ما بدده متسائلاً في لهفة :أعرف بقى الصاغ عبده عمل إيه في ورقة النص .

-أحمد سعيد: قصيدة شوقي فيها بيت الشعر اللي بيقول فيه : «لزمت باب أمير الأنبياء»، وحضرته عمل دايره بقلمه الأحمر حول عبارة أمير الأنبياء وكتب جنبها «لا تذاع ألم تعلموا أن الثورة ألغت الملكية وألقاب الأمراء».

ويسجل أحمد سعيد رد الفعل على فتحي الديب قائلاً: أنه بدا وجهه مجمدًا على مشاعر إنسان منسحق للحظات، تسمرت خلالها حدقتي عينيه ، ثم انفجر في ضحك هستيري! وخرج من جيبه منديلاً ليجفف دموع الضحك ،وهو يقول للمذيعين الأربعة :« قولوا لي: إن التأشيرة دي تشنيعة» .

- وقبل أن يتسابق الجميع في تأكيدها وصحة حدوثها، أوقفهم صوت فتحي الديب هاتفًا :

دي مصيبة ما تخطر على بال!

-يعقب جلال معوض : عشان تعذرنا .

- يتساءل فتحي الديب : واتمنعت القصيدة .

- يجيب أحمد سعيد: أحمد خميس لما نادية أعطت له الورقة هاج وماج ، ودخل على الأستاذ صالح جودت مراقب السهرة إمبارح وأعطاه الورقة ،والأستاذ صالح رجل شاعر، ومهذب، ورقيق اتصل تليفونيًا باللواء الرحماني مدير الإذاعة يستأذنه في ان يطلع له في أمر عاجل ومهم ونزل من عنده بعد ثواني بوعد إلغاء أمر المنع

وعرفنا انه استدعي الصاغ الرقيب وقعد عنده ساعة زمن قال له فيها: إيه ما نعرفش ، إنما خرج من عنده وشه متعكر، ونزل مارجعش غير النهاردة الصبح ، وأرسل لجميع الأقسام تعليمات بأنه لن يقبل مراجعة حاجة إلا إذا اتعرضت عليه قبلها بيوم ما عدا الأخبار والتعليقات .

خرج الرقيب الرائد من الإذاعة بعد ذلك، وتم تعيين عبد المنعم السباعي، وهو شاعر وكاتب أغاني ، ورغم ما حدث نحو أم كلثوم من إجراءات في الإذاعة إلا أن هذه الإجراءات لم تؤسس علاقة تناقض بين أم كلثوم والعهد الجديد، الذي اهتم رمزه الأول عبد الناصر بما حدث لها وقرر على الفور معالجته، بل ذهب إليها كنوع من الاعتذار لها واعتبرها خالدة خلودِ الأهرامات وأبو الهول، ويبقي أن تعبير «العهد البائد» الذي تم استخدمه ضدها يقذف ببعض اللبس في بحيرة التاريخ ويطرح تساؤلاً :

هل كانت أم كلثوم ابنة للعهد البائد بكل عوراته؟ أم أنها تعايشت معه دون اندماج؟

هل كانت تستعد لدخول المرحلة السياسية الجديدة بمفهوم التعايش مع أي سلطة سياسية شأنها في ذلك شأن بعض الفنانين الآخرين؟ أم أنها كانت تنتظر من هذه السلطة شيئًا مختلفًا عما قبل؟

الشاعر الغنائي الكبير أحمد شفيق كامل، أحد شعراء أغنيات أم كلثوم له رؤية خاصة، يحددها في قوله :

«لم تكن أم كلثوم ابنة مخلصة للعهد البائد كما جاء في رواية متع أغانيها.. صحيح أنها غنت في مناسبات خاصة للملك ،وأيضًا فعل عبد الوهاب (الفن والشباب)، وبحماس الشباب أنا مثلًا لم أكن مستريحًا لما كتبه رامي لأم كلثوم بعد الثورة مباشرة « يا دولة الظلم، انمحي وبيدي».

يضيف شفيق :« بشئ من التأمل وشهادة للتاريخ أري، أنه لابد من فهم هذه القضية في سياقها الصحيح، وأعني بذلك أن أم كلثوم مطربة، والمطرب ملك لمن يطلبه، كما أن الفن قبل الثورة لم يكن له عقيدة ،بمعني أنه لم يكن هناك تيار غنائي سائد يقود الوطن نحو الاستقلال، فحكاية المطرب ملك لمن يطلبه ،كانت قبل الثورة تحمل معني واحدًا هو «أن الملك موجود وهو الذي يطلب».

رؤية الشاعر أحمد شفيق كامل تجد صداها في صفحات التاريخ..

جاء في صحيفة الجمهور المصري في فبراير ١٩٥٢م، نقدًا لاذعًا لأم كلثوم بسبب حفلتها الشهرية التي قدمت فيها أغنية «رق الحبيب»، وقصيدة «رباعيات الخيام» بينما كانت تعيش مصر جرح معركة رجال الشرطة في القناة مع كتيبة مدرعة من الجيش البريطاني، واستشهد فيها رجال من الشرطة.

قالت صحيفة الجمهور المصري في مقال قاسي، لم يحمل اسم صاحبه الحقيقي:

«ما كنا ننتظر من مطربة الشرق أن تذيع في الظروف الراهنة الفاجعة، غنوتها الغزلية الجديدة الذائبة حنينًا وصبابة وشوقًا، ولا قصيدة عمر الخيام السابحة في بحار الخمر والهوي، ولا تلك الأغنية الثالثة «رق الحبيب» التي سمعها الناس من قبل مرات، فكانت هذه الأغنية على جمالها، أسوأ ما اقترفته مطربة الشرق من الذنوب في حفلتها الأخيرة، فلم يطرب مصري واحد لهذه الأغنية الهزلية المترفة في الليلة التي كانت فيها أرواح الشهداء تصعد إلى بارئها في ميدان المعركة المحتدمة بمنطقة القناة ».

لم يكن مجرد تقديم هذه الأغاني السبب الوحيد في توجيه هذه الانتقادات الجارحة إلى أم كلثوم، ويكشف الناقد والمؤرخ كمال النجمي أنه هو صاحب هذا المقال الذي لم يحمل توقيعه الحقيقي ، وأن الأسباب الحقيقية التي جعلته قاسيًا إلى حد كبير على أم كلثوم أنها غنت مونولوجها الشهير «رق الحبيب»، بناء على

«تليفون» تلقته في أثناء استراحتها في غرفتها بمسرح الأزبكية، وبعد أدائها الوصلتين الأولي والثانية، وكانت إحداهما «رباعيات الخيام»، والثانية أغنية لا يتذكرها،ويقول: إن القصة بحذافيرها كما كان يتداولها الوسط الصحفي حينذاك، هي أن الملك فاروق كان قد هجر الملكة ناريمان، أو خاصمها لسبب من الأسباب، ثم عاد إليها في تلك الليلة بعد الهجر والخصام، فطربت الملكة لهذا الرضا الملكي السامي، وأحبت أن تستمع من أم كلثوم في حفلتها لأغنية تكون لسان حالها (أي حال الملكة) في سرورها بوصال فاروق بعد الهجران، فلم تجد ناريمان أبلغ تعبيرًا وتصويرًا لحالها من أغنية «رق الحبيب» مع أن أم كلثوم كانت قد انقعطت عن تقديم هذه الأغنية في حفلاتها بعد أن قدمتها مرة بعد مرة في سنوات متوالية في عقد الأربعينيات.

يضيف النجمي علمنا نحن الصحفيين ، أن ناريمان اتصلت بأم كلثوم في مسرح الأزبكية، وطلبت هذه الأغنية، ولم تكن أم كلثوم مستعدة لغنائها، بل كانت نسيت بعض كلماتها، فاجتمعت وفرقتها الموسيقية، وملحن الأغنية وقائد الفرقة محمد القصبجي، وأجرت بروفة استعادت بها حفظها للأغنية، ولهذا تأخر رفع الستارة في الوصلة الثالثة.

يضيف النجمي: لم تكن أم كلثوم قد غنت شيئًا من تلحين القصبجي في حفلة عامة منذ سنوات حتى طلبت منها الملكة ناريمان أغنية «رق الحبيب» وهي من أبدع ألحانه، فبكي القصبجي تأثرا من «هذا العطف السامي» على أغنيته، واعتبر الإعجاب الملوكي ردًا لاعتباره عند أم كلثوم بوجه خاص، ولم يفت بكاء القصبجي في تلك الليلة صحافة ذلك العهد، فأومأت إليه بعض الصحف بتلميح يشبه التصريح، وقالت: بكي القصبجي تأثرًا بما حظي به من «العطف السامي».. وعرف أذكياء القراء أن ذلك معناه، أن أم كلثوم، إنما قدمت تلك الأغنية بطلب من القصر

الملكي العامر!

لم تكن هذه الحكاية هي الوحيدة في فصل العلاقة بين أم كلثوم والقصر الملكي، وإذا كان عهد الملك فؤاد الأول اتسم في هذا الجانب بما يمكن وصفه بأن «كل واحد في حاله»، بمعنى أن القصر يحكم كما يريد، وأم كلثوم تغني في سياق مشروعها الغنائي، ولم يكن هناك مقصد منها، أومن أحد لتوظيفها لصالح مشروع سياسي ما، نقول إذا كان الأمر كذلك مع فؤاد الأول، فإنها مع ابنه الملك فاروق الأول كان الأمر مختلفا، فالعديد من الشواهد تؤكد أن أم كلثوم غنت له، ففي الساعة العشرة من مساءً الخميس ٢٩ يوليو ١٩٣٧م وبمناسبة رفع الوصاية عنه ومباشرته لسلطاته الدستورية ،غنت قصيدة من لحن رياض السنباطي وكلمات الشاعر أحمد رامي يقول مطلعها:

جل من هناك بالملك السعيد / يا مليك النيل في العصر الجديد / نعمة أسبغها الله على / عهدك الزاهي وواديك الرغيد .

وفي مذكراته «فاروق كما عرفته» يقول كريم ثابت المستشار الصحفي للملك فاروق: إن فاروق لم يكن يميل إلى الموسيقي العربية، والغناء العربي، ولا يعني بسماعها، ولم يكن يحب سوي بعض «الطقاطيق» العربية، إما على سبيل التسلية أو لأنها كانت تحتوي على تحية له في الحفلات التي كان يشهدها، ويروي كريم ثابت عن فاروق: «لما ذهب مرة إلى النادي الأهلي، ليسمع أم كلثوم في حفلة من حفلاتها ذهب إليه في الحقيقة لمأرب سياسي، وليس لسماع كبيرة مطربات الشرق، فقد كانت وزارة الوفد التي تألفت في ٤ فبراير ١٩٤٢ متربعة يؤمئذٍ في دست الأحكام، وقد ذهب في مناوأتها لفاروق إلى منع إذاعة القرآن الكريم في قصر عابدين في أثناء شهر رمضان ،ففكر أحمد حسنين «باشا» – وكان رئيسًا للديوان الملكي – مع بعض أصدقائه في مناورة يغيظون بها الوزارة، وهي أن يذهب فاروق إلى النادي الأهلي،

بينما أم كلثوم تغني، والإذاعة «مفتوحة»، فيردد الراديو صدي أصوات التصفيق والهتافات وحدث ذلك فعلاً.

ويضيف ثابت: «في تلك الليلة أنعم فاروق على أم كلثوم بنشان الكمال من الطبقة الثالثة، وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ وقع نظره في إحدي المجلات على صورة تمثل أم كلثوم جالسة في فندق «سان استفانو» إلى مائدة واحدة مع السيدة زينب الوكيل، فغضب لمجالستها حرم مصطفي النحاس «باشا» عدوه السياسي في ذلك الحين، وجلب بواسطة بوليسه الخاص الصورة الفوتوغرافية الأصلية للصورة المنشورة في المجلة، وأرسلها إلى لأطلع عليها « أم كلثوم »، وأعاتبها على ذلك فلم أفعل»، يضيف ثابت « حاولت أن أقنعه بأن أم كلثوم ليست موظفه في القصر، فتقاطع من يقاطعه القصر، فأبي أن يقتنع بهذا الرأي، ولم يرض عنها بعد ذلك.

ويزيد كريم ثابت في قوله عن الملك فاروق :« كان يعتقد أن صوته جميل، وأن له «سحبة» لا يدركها كثيرون، وأنه يحسن الغناء»، ويعلق ثابت :« الحقيقة أنه لم يكن صوته جميلاً، ولم يكن له «السحبة» التي أراد أن تكون له، ولم يكن يحسن الغناء، بل لم يكن له أقل إلمام بأصول الغناء وقواعده» ، ويضيف ثابت : «قال لي مرة بعدما صاحب أنشودة كانت تذاع بالراديو: «هل تعرف يا كريم، أنه لو لم أكن ملكًا لأمكن أن أكون مغنيًا » فقلت له على الفور: لا معلهش يا مولانا.. خليك ملك أحسن!».

يضيف ثابت :«وكان قبل ذلك بمدة قد قال لي: «لو لم أكن ملكًا لاستطعت أن أكون ميكانيكيًا».

ومن واقع التسجيل الصوتي للحفل الذي يشير إليه كريم ثابت، والذي يحتفظ به المؤرخ الموسيقي د. نبيل حنفي محمود، ومن واقع ما ذكرته أم كلثوم لمجلة

الصباح في عددها الصادر يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٤٤م، يأتي. نبيل حنفي بالقصة كاملة قائلاً: « كان هذا الحفل في مساء الأحد ٢٤ سبتمبر عام ١٩٤٤م وكانت مناسبته حلول عيد الفطر المبارك، وكان مكان الحفل حديقة النادي الأهلي في حي الجزيرة بالقاهرة، وغنت مونولوج (رق الحبيب)، وقالت أم كلثوم لمندوب مجلة الصباح عما حدث في تلك الليلة، وعن إحساسها قبل أن تغني: «لا أكتمك أنني قبل أن أبدأ الغناء في تلك الليلة النادرة الوجود، كنت عادية. شأني في ذلك كشأني في كل حفلة أغني فيها، وكنت قد أعتزمت بمناسبة حلول عيد الفطر أن أغني في الوصلة الثانية، الأغنية المحبوبة للجمهور «يا ليلة العيد أنستينا.. وجددت الأمل فينا» وكان الجو جميلاً مبهجًا للنفس، والجمهور الذي حضر الحفلة كان نخبة ممتازة» ، ثم تصف أم كلثوم ما كان من أمر رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا، والذي كان جالسًا بالصف الأول قبالتها في ذلك الحفل، عندما مال أحدهم ليهمس بحديث في أذنه بينما كانت أم كلثوم تسترسل في غناء طقطوقة «يا ليلة العيد»، وبعد أن نهض رئيس الديوان الملكي، جاء الأستاذ فكري أباظة ليعلن- كما هو واضح في الشريط المسجل للحفل – أن جلالة الملك قد شرف الحفل، وتصف أم كلثوم لمجلة الصباح شعورها إزاء تلك المفاجأة قائلة : «وقبل أن أتوقف عن الغناء دوي الهتاف من الشباب الممتلئ بحب الفاروق حامي وادي النيل، وسرعان ما تملكتني فرحة لا أقوي على تصويرها، ورهبة لم أشعر بها طيلة حياتي الغنائية، ونظرت بعيني وأنا في هذا الموقف لهذا الحب العميق الذي تصوره قلوب تكاد تجن بحب الفاروق، وتجلت أمام ناظري الذات الملكية في مشيتها نحو الصف الأول ترعاها العناية الصمدانية، ووقفت أمام الميكروفون، وأمام الملك، وهنا وهبتني العناية الصمدانية من لدنها قوة وشجاعة فواصلت الغناء». ويوضح د. نبيل: «كان ما غنت أم كلثوم في تلك الليلة، وأبدعت فيه من واقع الشريط المسجل، المقطع الأخير من طقطوقة

«يا ليلة العيد»، والذي تترنم فيه بالشطرات التالية :

يا نيلنا ميتك سكر / وزرعك في الغيطان نور

يعيش فاروق ويتهني / ونحيي له ليالي العيد

وإزاء الإعجاب الشديد من جمهور الحفل وتصفيقه المتواصل أعادت أم كلثوم ذلك المقطع، وكررته مرات عديدة، وعندما اختمت تلك الوصلة، فإنها كانت من الذكاء بمكان عندما اختتمتها بمقطع أغنية «حبيبي يسعد أوقاته»، وهو المقطع الذي تتغني فيه : «والليلة عيد / ع الدنيا سعيد، وعز وتمجيد لك يا مليكي».

وعما حدث بعد الحفل تستكمل أم كلثوم حديثها لمجلة الصباح، قائلة: «ثم نزلت الستار، ونظرت من طياتها إلى جلالة 'الملك، فوجدت جلالته في مكانه، وجاءني من يبشرني بالمثول بين يدي جلالته، وخطت قدماي نحو المكان السامي الذي تجلت فيه الديمقراطية بأسمي معانيها، ولثمت اليد الكريمة، لحظات مرت سراعًا كانت هي السعادة كلها، بل تقدير علوي سينير الطريق إلى آخر نسمة في الحياة.

وتقول مجلة الصباح في وصف ما حدث بعد أن صافحت أم كلثوم يد الملك وقبلتها: »أنبأنا الأستاذ مصطفي أمين بك (الكاتب الصحفي الراحل) في المذياع، تعطف جلالته السامي بمنح الآنسة أم كلثوم إبراهيم نيشان (الكمال)، ويحمل شريط الحفل المسجل صوت مصطفي أمين يزف الخبر ، ويحمل كلمة ارتجلتها أم كلثوم من وحي الموقف، وقالت فيها: «سيداتي سادتي.. تعطف صاحب الجلالة مولاي الملك المحبوب بتشريفه هذه الحفلة فوق ما تستطيع أن تعبر عنه نفس، فإني لا أجد من الكلمات ما أعبر عن شعوري إزاءه، وإني أضرع إلى الله أن يمد في عمر الفاروق، ويحفظه للبلاد ذخرًا وللفن نصيرًا »(*).

(*) – جريدة القاهرة – العدد ٢٥٣ – ١٥ فبراير ٢٠٠٥م مقال «أسطورة حفلات الست» د. نبيل حنفي محمود.

هل يؤكد ما سبق مقولة الشاعر أحمد شفيق كامل: «المطرب ملك لن يطلبه، والملك هو الذي كان يطلب»، وبالتالي قدمت أم كلثوم بعضًا من فنها بأوامر ملكية؟. أم أنها كانت تقدم ما تقدمه وتنتظر الرضا الملكي أولاً وأخيرًا؟. والاحتكام في هذا إلى ما حدث في حفل النادي الأهلي بحضور الملك، وما قالته أم كلثوم عنه يعطي التباسًا أكثر مما يعطي إجابة شافية، فأم كلثوم لم تكن مقاومة لسلطة سياسية وإنما فنانة لها مشروع غنائي تجاوب معه الشعب بكل طبقاته، وإذا كانت هي نظرت إلى الملك فاروق بوصفه حاكما له الطاعة حتى يسير مشروعها كما تحب، فإن الملك وجد في حفلتها الغنائية الوسيلة المثلي لمخاطبة الشعب وكسر طوق الحصار المفروض عليه من حكومة الوفد، ولما وجدها تجلس مع زينب الوكيل زوجة مصطفي النحاس غضب عليها، ولم يرض عنها، ويعود هذا التفسير إلى القول بأن الملك هو الذي كان في احتياج إليها ويشير إلى ذلك سعد الدين وهبه بقوله :

«هناك من الحكايات العديدة التي روتها لي أم كلثوم ما يؤكد أنها لم تكن من الأصل إحدى المفضلات لدي الملك،وكانت هي تحاول قدر ما تستطيع صنع المواقف التي تؤكد استقلالية شخصيتها، كان الملك ذات مرة موجودا في الحلمية بالاس (أحد النوادي الليلية في الأربعينيات) وتصادف وجودها، وطلبها على مائدته، لكنها رفضت، وحين شعر أنه فقد بعضًا من شعبيته، منحها نيشان الكمال حتى يكسب رضا الناس، وهذا النوع من النياشين كان مخصصًا للأميرات ولزوجات رؤساء الحكومة، ولأن أم كلثوم فلاحة ثارت أرستقراطيات المجتمع، وقررن إعادة الأوسمة التي حصلن عليها احتجاجًا على ما فعله الملك، لولا أن السيدة صفية زغلول أرملة الزعيم سعد زغلول ساندتها وهنأتها، وكانت هي الأخرى حاصلة على وسام معها».

يضيف سعد: شوف.. لا يمكن التقاط واقعة من هنا، وأخرى من هناك للتدليل على شئ غير حقيقي. لم تكن أم كلثوم مغنية قصر، أو مغنية باشاوات، هي ظلت حتى آخر يوم في حياتها تذكر بكل فخر وحنين أنها بنت طماي الزهايرة، فلاحة، من أصول فقيرة، لا تنتمي إلى الملوك في شئ ،كما أنها وهي صغيرة كانت متمردة وعنيدة جدًّا،هي حكت لي وأنا أعد فيلمًا سينمائيًا عنها لم ير النور، أنها كانت تغني في الأزبكية وهي صغيرة، وهتف الجمهور: «يحيا سعد.. يحيا سعد»، وطالبها بأن تغني لسعد، فرفضت، وصعد أبوها إلى المسرح وضربها بالقلم، حتى تلبي رغبة الجمهور لكنها رفضت وبكت، ودخلت خلف الكواليس، ولما سئلت بعد ذلك، أجابت: أنا أحب سعد، لكن ما أغنيش بالأمر، هي حكت لي إن الجمهور كاد يتهجم عليها، وأن صفعة أبيها كانت لتهدئة الناس، ورغم ذلك صممت على موقفها، «كرامة يعني زيادة عن اللزوم»، أما حكاية أغانيها للملك ، فهي حاجات «هايفة»، لا تذكر.

ويعطي المؤرخ كمال النجمي صورة مكملة لما ذكره سعد الدين وهبه، وذلك من باب الحس الوطني الذي تمتعت به قائلًا:

«غنت أم كلثوم قصيدة «سلو قلبي»، لأحمد شوقي في الأربعينات (القرن الماضي) وقال فيها:

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابًا

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

حين غنت أم كلثوم هذه الأبيات، كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، ونهض الشعب المصري يعرض على المحتلين مطالبه الوطنية في جلاء قواتهم على أرضه، واستكمال استقلاله، وكانت كلمة «المطالب» تعني المطالب الوطنية، ولهذا كان البيت الذي يذكر فيه شوقي، وما نيل المطالب بالتمني يثير

حماسة مستمعي أم كلثوم، فيعلو هتافهم وتصفيقهم في كل مرة يستمعون فيها إلى هذا البيت الذي لحنه السنباطي تلحينًا حماسيًا رائعًا، وهكذا اختلطت الحماسة الوطنية بالأشواق الدينية في هذه القصيدة التي كانت باكورة الحقيقة لشعر شوقي على حنجرة أم كلثوم، وتحولت أم كلثوم إلى داعية من دعاة الجلاء بسبب هذه القصيدة التي ألهبت حماسة الجماهير حتى قال محمد عبد الوهاب تعليقًا عليها آنذاك: «يصفق الجمهور»، ويهتف لأم كلثوم، كأنها زعيمة وطنية لا مطربة».

يضيف النجمي:

«عقب الحرب العالمية الثانية، انشغل الرأي العام في مصر بقضية الوحدة بين مصر والسودان، وفي عام ١٩٤٦ اختارت أم كلثوم من ديوان شوقي قصيدة كان قد نظمها في العشرينات، عندما أطلق الشبان الرصاص على سعد زغلول لاعتزامه السفر إلى لندن، من أجل مفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية الجلاء، واستقلال السودان، وتبدأ القصيدة بفرح لنجاة الزعيم والتهليل لشفائه من جرحه البسيط:

نجا وتماثل ربانها ... ودق البشائر ركبانها
تحول عنها الأذي وانثني ... عباب الخطوب وطوفانها

ثم يمضي في أبياته البليغة:

وفي الأرض شر مقاديره ... لطيف السماء ورحمانها

بدأت أم كلثوم غناءها بهذا البيت، ثم ألحقت به الأبيات التي قالها شوقي عن السودان، وكان سعد زغلول يعتزم أن يجعله في جدول المفاوضات، ويرى كمال النجمي في ذلك، أن أم كلثوم كانت تبحث عن كلمات أغانيها عما يطابق الزمن، وفهم طبيعة المراحل الاجتماعية والسياسية، وإذا كان مزاج السميعة قد تبدل أثناء الحرب العالمية الثانية، كما سبقت الإشارة، فإن أم كلثوم فهمت هذا التحول

بطريقتها، ومزجته بما يثير الحماسة.

يتداخل الشخصي بالعام لدي أم كلثوم في هذه المرحلة ،فإذا كانت قد حصلت على نيشان الكمال، فإن هذا يدخل في نطاق التقدير العام لما قدمته من فن، غير أن سلب ما هو طبيعي لدي الإنسان لابد أن يشعر معه بالقهر مهما كان التقدير العام من حوله، وأم كلثوم عاشت الحالتين، حالة التقدير العام لفنها،وحالة القهر الشخصي لمشاعرها، والذي تجلي في رفض الملك زواجها من خاله شريف باشا صبري بعد أن تبادلا الحب ، وأيضًا زواجها من الموسيقار محمود الشريف ، وهناك تفسيرات كثيرة لقصتها مع شريف باشا صبري، منها ما قيل أنها كانت انتصارًا للبنت الفلاحة البسيطة التي استطاعت بجاذبيتها الجديدة أن تكسر الحواجز ، وتفرض على الأسرة المالكة سطوة من بنت طالعة من هؤلاء الفلاحين الذين هم في نظر هذه الأسرة خدامًا وأجراء ليس أكثر، ولم يخرج رفض الملك عن هذا التفسير .

وإذا كان هذا هو سبب رفض الملك فاروق لزواج أم كلثوم من خاله شريف باشا صبري ، فلماذا رفض زواجها من الموسيقار محمود الشريف وهو من نفس طبقتها ؟! وحسب روايته في مذاكراته الشخصية لقصة غرامه مع أم كلثوم سنصل إلى دلالات عميقة ،تكشف إلى أي مدى كانت تنظر إلى القصر والملك بعدم الارتياح.

يصف الشريف قصتهما معا بوصف رومانسي حالم: «لم نترك مكانا في ضواحي القاهرة إلا وفيه بصمات سهراتنا وخمواتنا، عشنا أياما كالحلم، كانت تبدو وكأنها فتاة في سن العشرين، تحرك في داخلها الحب معه كل إنسانيتها وتغير كل شئ ، الحياة، الألوان، تغيرت حتى ألوان ملابسها، حتى نقابة الموسيقيين لم تسلم من هذا التغيير فقد خلع مبناها زيه القديم ولبس ثوبًا من طلاء جديد ،كنا كعصفورين نحلق في سماء ربيع دائم تملؤه الخضرة والحب، وكان شعارنا كما عبرت عنه أم كلثوم «أنا وأنت والحب وبس».

وفي موضع آخر يقول: «في جلسة من جلسات الصباح الخالدة، وعلى إحدى روابينا الخضر كانت تطعمني، وبدأ اهتمامها بي في شكل غير عادي، قالت لي بالحرف الواحد: «هل تسمح لي أن أتولي الإشراف على حياتك وشئونك. فأنا أراك تنتحر»، لم يكن يمر يوم دون أن نلتقي، اعتادت قدماي على فيلا أم كلثوم، أحيانًا أكون ضيفًا على الغداء، أو ضيف سهرتها الوحيد، كل منا يفرغ ما في جعبته من أسرار، ويتسابق كل منا في أن يفتح قلبه للآخر، حتى أننا كنا نتشاجر كالأطفال حول من يحكي قصته قبل الآخر». «كنت أختار لها فستان السهرة والبروش والإيشارب، وكان كلما اقترب ميعاد حفلتها الساهرة الشهرية تزداد قلقًا وخوفًا وترددًا ، كانت تفكر في قرار الاعتزال بجدية».

ويحدد الشريف بداية تعارفهما من خلال مجلس نقابة الموسيقيين وعبر الإذاعي محمد فتحي، ويشير إلى أنها أعطته كلمات أغنية «لسه فاكر»، وأعد لحنها بالفعل، واستمعت إليه دون تعليق وهو ما يعني عدم تحمسها له، ثم أسندته فيما بعد لرياض السنباطي.

يضيف الشريف: «بعد عام ونصف بين رعشات الأيدي واضطراب الشفاه، ولم يكن أحد خلالها يعرف حقيقة العلاقة.

ماذا بعد كل هذا الحب؟ سألتها وهي في قمة السعادة: إيه رأيك؟

- لم أكمل ما أريد قوله.. قالت: موافقة.

- قلت لها: موافقة على إيه؟

- ردت ببديهة حاضرة: موافقة على اللي انت بتفكر فيه.

- وإيه اللي أنا بافكر فيه؟.. ضحكنا. ثم بادرتها قائلًا: وفاطمة (زوجة الشريف وكانت مريضة)

- مالها فاطمة؟

لا أستطيع التخلي عنها،وأنت تعرفين محنة مرضها، وليس لها في العالم سواي.

قالت: بالعكس، إبقاؤك على فاطمة شيء يرفع مكانتك في نظري، ويزيد اطمئناني إليك؟ أنا عارفة الموقف كويس.

وبعد لحظة صمت أردفت قائلة: لعلمك، ولو أني كنت عايزة أعملها لك مفاجأة، أنا منذ أيام اتصلت بصاحب العمارة المجاورة للفيلا، وحدثته بخصوص شقة في العمارة تنقل فيها الأسرة علشان يبقوا كلهم جنبنا، وعشان تبقي جنبي، وجنبهم طول الوقت.

قلت: إذن متي؟

قالت: سأرسل إلى أخي خالد، واستدركت الموقف بقولها:

- ليس بقصد المشورة، ولكن من باب المجاملة، حتى أشعره باهتمامي به وبأنه في الصورة.

يضيف الشريف: تمت الخطوبة في ليلة رأس السنة الهجرية ووضعت دبلة الخطوبة في يدها، نقشت على دبلتي «لا إله إلا الله» وعلي دبلتها «محمد رسول الله». ورنت أول زغرودة في فيلا أم كلثوم، وحضر الخطبة الإذاعي محمد محمود شعبان (بابا شارو)، ومن الموسيقيين محمد عبده صالح عازف القانون في فرقتها، وأمير الكمان أحمد الحفناوي، وصديقي الموسيقي عبد الرءوف عيسي، ومنشد الكورال محمد نبيه، وكانت هديتي لها خاتمًا ماسيًا مطعمًا بالبلاتين كان في إصبعي، كانت قد أعجبت به، فأهديته إليه على الرغم من أنه خاتم رجالي، أما هديتها لي فكانت ساعة والدها الذهبية القديمة، وهي ساعة سويسرية لها غطاء من الجلد.

رغم تكتم الخبر إلا أنه تسرب إلى صحيفة «أخبار اليوم»، ورن جرس الهاتف في الفيلا، وكان المتحدث مصطفي أمين.

- مبروك!

- شكرًا.

ـ الخبر صحيح إذن.

ـ نعم.

ـ متي يتم الزواج؟

ـ قريبًا.

ـ وهل تعتزلين الغناء؟

ـ الأمر له وما يريد.

في صباح اليوم التالي كتبت أخبار اليوم القصة تحت عنوان «زواج أم كلثوم» بقلم الصحفي مصطفي أمين.

يشير الشريف في مذكراته، وفي أكثر من موضع إلى أن عمق العلاقة بينه وبين أم كلثوم وصل إلى درجة مبادرتها أكثر من مرة لزيارة شقته في حي السيدة زينب، وتعارفها عن قرب على أمه وشقيقته وزوجته فاطمة التي تعاني مرض القلب وحار الأطباء في تشخيص علاجها، وتعمقت العلاقة مع الأسرة إلى حد أن أم كلثوم كانت تفضل وجبات الطعام من أخيه حسن، والذي اشتهر بها، ويشير أيضًا إلى أنها في إحدى زياراتها لمنزله، لم يكن هو موجودًا في المنزل حيث كان يقوم بتسجيل أغنية في الإذاعة، وفوجئ بعد عودته أن سيارة أم كلثوم موجودة أمام منزله، والناس تلتف حولها، ولما صعد مسكنه وجدها بالإضافة إلى عدد من الأطباء الآخرين منهم الدكتور حسن الحفناوي صديق عائلته، وزوج أم كلثوم فيما بعد، جاءوا جميعًا لإجراء الكشف على زوجته فاطمة، وكان الشريف السبب في تعريف الحفناوي على أم كلثوم.. كما يشير إلى أنه ومع تفاقم حالة زوجته المرضية، وتأثير ذلك سلبيًا عليه، نصحه عبد الوهاب بأن يبحث الأمر ويضع حدًا لذلك، في إشارة من عبد الوهاب بأن الشرع يجيز له وضع حد لحياته مع زوجته ما دامت هي مريضة، وهو بهذا القدر من السوء، ورفض الشريف هذا، وأثار هذا إعجاب أم

كلثوم وعقبت عليه قائلة: «أنت بتكبر في نظري أكثر بسبب تمسكك بفاطمة».

الرومانسية الحالمة التي يحكي بها الشريف، وكلمات الغرام التي ينقلها عنها تطرح تساؤلا لماذا الشريف بالذات هو الذي استطاع أن يخطف قلبها؟ هل جاء كرد فعل منها على رفض الملك لزواجها من خاله شريف باشا صبري، بمعني أنها بحثت عن البديل من طبقتها التي خرجت منها؟ أم أن شخصية الشريف حملت سمات أثرت فيها على هذا النحو؟.

الفنان كمال الطويل يجيب على هذا السؤال بإيجاز، لكنه قوي ولافت، يقول: « محمود شريف حقيقة في حياة أم كلثوم لا يستطيع أحد إنكارها، وإن تأثيره عليها كان قويًا بالغًا، لأنه كان شخصية «خشنة» تختلف عن الشخصيات المحيطة بها، وكانت هذه النقطة بالتحديد مصدر انجذاب أم كلثوم نحوه».

المهم، كيف كانت ردود الأفعال على خبر الخطوبة الذي جاء في أخبار اليوم؟

ينقل الشريف ردود الفعل على أصعدة مختلفة بدءًا من القصر الملكي مرورًا بمحمد القصبجي المولع بحب أم كلثوم دون استجابة منها، انتهاءً بأم كلثوم نفسها، ويشير بطريقة عابرة إلى حكاية مجهولة عن مقتل ضابط في رأس البر، وتثير هذه الحكاية علامات استفهام لا يقدم الشريف نفسه إجابة عنها.

عن القصبجي يقول الشريف: « كان يحب أم كلثوم حبًا مكتومًا لم يبح به، وبعد إعلان الخطوبة جاء إلى فيلا أم كلثوم، وكنت أقضي معظم أوقاتي معها، يحمل مسدسًا مهددًا بقتلي إن لم أفسخ الخطوبة، تقدمت أم كلثوم منه وسحبت المسدس من يده ثم طردته»، يضيف الشريف «كان أخطر حب لأم كلثوم هو حب القصبجي، فقد كانت تدركه بنفسها وتتجاهله، ولكنه كان يطاردها في صمت».

ويكشف الشريف: «حكي لي الفنان أحمد الحفناوي أن القصبجي كان يشكو لي من أنه يتكلف يوميًا خمسة جنيهات ثمنًا لتاكسي لكي يتتبع باستمرار خط سيرنا أنا وأم

كلثوم» ويضيف: «كانت هي تعرف ذلك، وتقصد عندما تراه يتتبع مسيرتنا أن تقطع القاهرة بسيارتها طولاً وعرضًا، حتى ترهقه، كانت تقول لي: خلينا نحرق قلبه ع الفلوس اللي بيدفعها عشان يبطل يتجسس على الناس»

أما رد الفعل على صعيد القصر الملكي فيقول عنه الشريف: في صباح اليوم التالي للخطوبة، وبعد أن نشرت الخبر «أخبار اليوم». دق جرس الباب في فيلا أم كلثوم وكان القادم مصطفي أمين، جاء يقول لأم كلثوم: إن الملك فاروق غير راض عن تلك الخطوبة، أجهشت أم كلثوم بالبكاء، وبادرت مصطفى أمين بقولي: دي خطيبتي أمام الله والرسول والناس، ما له الملك ومالنا؟

-رد مصطفي أمين : أحسن لك تنفذ الرغبة الملكية.

-قلت بتحد: ما فيش حد يقدر يفرق بيني وبين خطيبتي.

-جففت أم كلثوم دموعها، وقالت موجهة كلامها إلي:

-أمرنا لله يا محمود، مافيش نصيب، لازم تنفذ الأمر.

-ليه يا ثومة.

-أنا خايفة عليك.

- من إيه.

-أحسن يقتلوك.

-يقتلوني إزاي؟

-زي ما قتلوا الضابط بتاع رأس البر.

-سألت مصطفي أمين:

-إيه حكاية الضابط ده؟

-رد قائلًا: دي حكاية ثانية مش موضوعنا دلوقتي.

كتبت «أخبار اليوم» في اليوم التالي، أن أم كلثوم فسخت الخطوبة عندما علمت أن محمود الشريف له زوجة أخري لم تكن تعلم عنها شيئًا، ويعلق الشريف: «لم أعلق بكلمة، ولم ترد أم كلثوم على الرغم من علمها بالحقيقة كاملة، فقد آثرت أن تنحني برأسها إلى أن تمر العاصفة».

بعد فسخ الخطوبة بأشهر أصيبت أم كلثوم بجحوظ في عينيها نتيجة نشاط متزايد في الغدة الدرقية،ويحكي الشريف نقلاً عن صديقتها الأميرة سميرة أباظة، أن أم كلثوم كانت تتنزه في إحدى الأمسيات على شاطئ النيل في الزمالك، وهمت بأن تقذف بنفسها في النيل، لكن قريبتها وسكرتيرتها الخاصة سنية إسماعيل التي كانت برفقتها هرولت إليها، وعادت بها إلى المنزل.

عاد محمود الشريف إلى محرابه وإلى ألحانه، لا يصرح بشيء إلى الصحفيين: «لم أذكر أم كلثوم التي كنت أحترمها وأقدرها، لم أذكرها بكلمة سوء، وطويت الحلم الذي كاد أن يجمعنا لنعلن من جديد ميلاد المسرح الغنائي».

كان الشريف كما يشير في مذكراته قد أقنع أم كلثوم بأهمية استثمار صوتها في التصدي لعمل مسرح غنائي بدلًا من اقتصارها على الأغنية الفردية، لكن كما ذهب حلمه في الزواج بها، تبخر حلمهما في المسرح الغنائي، واستخلص هو من قصته معها معاني عديدة، أبرزها أن ما حدث لا يقف عند حدود التجربة الفردية فقط، وإنما يتسع ليشمل أبعاد سياسية، يعبر عنها بقوله:

«ظل زواج أم كلثوم حديث العظماء، والأمراء والقادة، تركوا خلفهم معاهدة صدقي - بيفن، وما جرته من مظاهرات واشتباكات دامية، لم يلتفتوا إلى الهتافات العدائية ضد الملك والملكية في الإسكندرية يوم رفع العلم على قلعة كوم الدكة، تركوا كل هذا وانشغلوا بأمر زواج أم كلثوم ومحمود الشريف، وكأن الدنيا انقلبت حين تزوج فنان بفنانة، ولم تنقلب حينما كانوا يساومون من أجل بيع مصر كلها

للأجنبي، استقرت كل تلك الأفكار في نفسي، وتأكد لي سخف الأغاني التي كانت تردد اسم فاروق الحب، والإجلال والتكريم، بينما الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع القاهرة والإسكندرية، وتكشف لي أن الجماهير كانت في طريق والقادة والمغنين كانوا في طريق آخر بعيدًا عن الناس، وعما يعتمل في نفوسهم، وقبل قيام ثورة يوليو بسنوات وجدتني أختار كلمات ذات مغزي خاص لألحنها.. رددتها كل جماهير الشعب من الإسكندرية إلى أسوان، وعشقتها كأنها أغنية عاطفية، ولكنها لم تكن كذلك، فقد كانت تعبيرًا صادقًا عن معاناة الشعب وعن مدي صبره على كل المهازل التي ترتكب باسمه.. كنت أرددها بعشق خاص، وحفرت في نفسي مجري معاديًا لكل ما هو ملكي وكل ما يصدر عن القصر:

تقول الأغنية:

«يا عطارين دلوني
الصبر فين أراضيه
ولو طلبتوا عيوني
خدوها بس ألاقيه
سألتهم عنه
العطارين قالوا
المر فيه منه
والصبر مش موجود
حا أعيش بأوهامي
طول ما المراد موجود
وأقول لأحلامي
الصبر مش موجود»

obeikandl.com

يري الشريف في هذه الأغنية تعبيرًا صادقًا عن نفاد الصبر والتوق إلى التغيير المنتظر حدوثه، يقول: «كانت التظاهرات التي ملأت الشوارع طوال السنوات السابقة للثورة تنبيء بشيء ما لا بد أن يحدث، وقد حدث بالفعل في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م».

والمؤكد أن قهر مشاعر الحب حين تمارسه سلطة سياسية يكتسب طعم العلقم.. خاصة إذا كانت سلطة من النوع الذي كان يساوم من أجل بيع مصر كلها للأجنبي. وقهر السلطة لمشاعر أم كلثوم تم في تجربتين هما الأكثر دراما في حياتها ، الأولي رفض الملك زواجها من خاله حتى لا يختلط الدم الملكي بدماء الفلاحين على الرغم من قيمتها التي علت وقدرها الذي سكن القلوب، والثانية، حين رفض الملك مشاعرها التي ذهبت إلى واحد من طبقتها جاء إلى القاهرة من باكوس الحي الشعبي في الإسكندرية، محملًا بعبق سيد درويش وبيرم التونسي.

كما لا يعرف أحد قصة هذا الضابط الذي قتل في رأس البر، هل كان حبًا آخر لها، تم التعامل معه بآلية أخري من القهر ،هي آلية القتل كما قالت أم كلثوم للشريف حين أبلغها مصطفي أمين أمر الملك بعدم إتمام الزواج؟ هل يمكن في ظل هذه الخصوصيات ألا تحمل أم كلثوم في قلبها كرها مشبعًا ضد القصر والملك حتى لو غنت لفاروق أغنية وفي أي مناسبة؟

والمؤكد تأسيسًا على ما سبق أن حساب أم كلثوم على العهد البائد هو نوع من حساب توحد التواجد الزمني فقط، أما التوحد بمفهوم الإنتماء، فقد كان مؤجلًا لزمن آت يتطابق وتتطابق معه..

والمؤكد أيضًا أن سجلها بكل تناقضاته لم يكن غائبًا عن أذهان قادة ثورة يوليو ١٩٥٢م، فهم جميعًا أبناء الطبقة الوسطي، الطبقة التي انحازت للتغيير، والطبقة التي يمكن اعتبار أم كلثوم منها، وهم جيل صنع وجدانه فن أم كلثوم وعبد الوهاب، ومن الطبيعي أنهم كانوا حريصين على حضور حفلاتها الشهرية كما أن

قائد الثورة جمال عبد الناصر مثلاً عرف عنه أنه كان محبًا للموسيقي والفن، وهناك من يؤكد أنه حاول تعلم العزف على آلة القانون، وانتسب للدراسة في معهد الموسيقي لهذا الغرض، والعهدة في هذه الرواية على وكيل وزارة الخارجية الراحل السفير وفاء حجازي، كان عبد الناصر عاشقا لأغنية «همسة حائرة» لمحمد عبد الوهاب.. وهاويًا بجدارة للقراءة في شتي العلوم والمعرفة.. يضاف إلى هذا التكوين الشخصي لعبد الناصر كثائر، فكما تقول سير الثوار أن في تكوين شخص الثائر جزء رومانسي حالم.. وهناك من يسحب هذه الجزئية في التكوين الشخصي لعبد الناصر على مشروعه السياسي لانتصاراته وانكساراته.

هذه المعطيات تكشف كيف كانت طبيعة التعامل بين أم كلثوم، وعهد ما قبل الثورة، طبيعة يخيم عليها الحذر والشك، كما تظهر ملامح طبيعة التقاء أم كلثوم بمرحلة الثورة ،طبيعة مهيأة للالتقاء بثورة ضد العهد البائد،طبيعة توحدها مع مرحلة رمزها شخصية بحجم وقيمة جمال عبد الناصر الذي أظهر حميمية في تصرفاته الأولي نحوها يتوافق فيها التقدير الشخصي بالعام، ومعرفة القيمة، وربما إدراكًا منه لدور لها سوف يأتي في معاركه الداخلية والخارجية نحو الاستقلال الوطني الذي أشعل به حماس الوطن العربي من محيطه إلى خليجه في الخمسينات، والستينيات من القرن الماضي،فكيف تكون هذا النسيج؟!

يقول الموسيقار عمار الشريعي: كانت أم كلثوم بحكم تربيتها ونشأتها الشخصية، وانغماسها في الطين المصري الذي استمر معها حتى موتها، بذرة جيدة لتبني فكر الثورة.. شئ مؤجل في شخصيتها ظهر مع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

عمار الشريعي يضع رؤيته في سياق أشمل يتمثل في الاحتياج المتبادل بين الثورة وأهل الفن، وفي مقدمتهم أم كلثوم، دون أن يقف حائلاً في ذلك ارتباط بعضهم بالعهد الملكي.

يقول: عمار حين قامت الثورة، كان يوجد بالفعل كوادر فنية راسخة، ونذكر من هذه الكوادر أو القمم، أم كلثوم، وعبد الوهاب، وفريد الأطرش ، وكان أمام القيادة الجديدة (الثورة) ثلاثة اختيارات هي :

الاختيار الأول : الاعتماد علي ما هو موجود وبالتالي الوقوع في محظور فقدان المصداقية ، لأن من غنوا .

أما الاختيار الثاني: فهو تخليق قيادات خاصة بها تحمل فكرها، وبالتالي تحمل لها ما قد تفعله من خير، أو شر أي تحمل مصداقيتها بشكل كامل.

أما الاختيار الثالث: فتمثل فيما يمكن تسميته بإمساك العصا من الوسط، بمعني خلق قيادات جديدة واستمالة القيادات السابقة، وهو ما حدث بالفعل.

يضيف عمار: كانت الشخصية المصرية بالفعل مؤهلة للثورة، وتشمل الفنانين أيضًا، والدليل على ذلك أن عبد الوهاب قدم قبل الثورة رائعة كامل الشناوي «نشيد الحرية»، وقدمت أم كلثوم عقب الثورة «صوت الوطن» لرياض ورامي، وقبل الثورة قنبلة «مصر التي في خاطري» وقدمت ليلي مراد «الاعتماد على الإله القوي» لمدحت عاصم، وقدم محمد قنديل «ع الدوار» أي: كان هناك استعداد واحتشاد من جماهير الفنانين المصريين لاجتياح الثورة، ثم تأييدها.

يواصل عمار: لو تأملنا تاريخ عبد الوهاب، وأم كلثوم مع العهد الملكي سنجد أن الاثنين كانا ينظران إلى الملك على أنه ملك.. غير أن عبد الوهاب في اعتقادي كان الأقرب لتأييد الثورة من زاوية قد لا يتنبه إليها البعض كما اعتقد، وهي أنه غازل الملك مرارًا.

وقدم له قصيدة «الفن» من كلمات الشاعر صالح جودت، وقدم أيضًا «الشباب» و « هل السلام » ولم يرد الملك على هذا الغزل بنيشان، أو لقب كما فعل مع أم كلثوم

ويوسف وهبي، والمعروف أن هذه الأشياء كانت تمثل لعبد الوهاب قيمة كبيرة، وتأسيسا على ذلك وحسب رأيي فإن عبد الوهاب كان بداخله شعور غير متعاطف مع الملك، وهذا ما جعله يتعاطف مع الرأي العام، ويقدم « نشيد الحرية »، أما أم كلثوم فكان الأمر بالنسبة لها مختلفًا، فهي سيدة تربت ونشأت في التربة المصرية ولم تغادر أبدًا طماي الزهايرة، فلاحة، ريقها بيجري على طبق المهلبية الذي تناولته وهي طفلة صغيرة، أي أنها بذرة جيدة لتبني أفكار الثورة.

يضيف عمار ،في رأيي أن أغنيتها العاطفية كانت تحمل هذه الإشارات، فمن يقدم أغنية « أصون كرامتي من أجل حبي » يؤكد أن لديه شعورًا بعزة النفس، قد يقول القائل: أنها غنت «عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك»..

أرد عليه فورًا أنها قالت: « وتجيب خضوعي منين ولوعتي في هواك »،كما أنها قالت في أول الأغنية: «حرمتني من نار حبك، وأنا حرمتك من دمعي»، يعني أتألم من غير بكا، كما يعني فهم الأغنية على أن الحب فيها يمكن أن يكون مستباحًا أو خانعًا، لكن رد الحبيب ليس خانعًا في معظم الوقت.

يستخلص عمار أن تركيبة أم كلثوم كانت بذرة جيدة لتبني فكر ثوري، وللتعامل معه، والمشاركة فيه.

ويدلل على رؤيته بتسجيل استمع إليه في الإذاعة لأغنية «صوت الوطن»، وكانت في أول حفلة لضباط الجيش بعد الثورة، وشارك فيها أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، وحصل خلالها مشادة بين الضباط وفريد بعد أن دخل خشبة المسرح، وقال «مساء الخير يا باشاوات»، فهاجوا غضبًا، لأن الثورة كانت قد أصدرت قرارًا بإلغاء الألقاب قدمت أم كلثوم في هذا الحفل قصيدة « صوت الوطن » بإحساس يفوق الوصف، يقول عمار: لم أستطع مقاومة البكاء وأنا أسمعه، وفي المقطع الأخير: «نحبها من روحنا ونفتديها بالعزيز الأكرم».. تركت أم كلثوم

الضباط، ومنهم عبد الناصر يرددونها معها في غناء يدفع القلب إلى ترك الضلوع.. هذا الأداء من يسمعه يتأكد أن شيئًا مؤجلًا في شخصية أم كلثوم ظهر مع لحظة الثورة.. هذا الشيء هو التكوين الثوري الفطري، والذي سيظهر فيما بعد في معارك وطنية عديدة مثل العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، ومرحلة ما بعد ١٩٦٧م، كما سيظهر في العلاقة التي توطدت بينها وبين عائلة عبد الناصر، بعد أن لخصت فيه أو وجدت فيه كل المعاني النبيلة الإنسانية والسياسية.

obeikandi.com